طالــوت عليه السلام

كان التابوتُ نعمةً من نِعم الله على بني إسرائيل ـ ونعمُهُ كانت عليهم سابغةً وآلاؤه متلاحقة ـ وكان لهذا التابوت عندهم شأنٌ عجيب، ونبأ ظريف، كانوا إذا اشتبكُوا مع أعدائهم في قتال، أو التقَوْا بهم في ساحة نِزَال، يحملونه بين أيديهم، ويقَدِّمونه في صفوفهم، فينْشُر في قلوبهم سكينةً واطمئناناً ويبعثُ في أعدائهم هَلعاً ورعباً، لسِرّ عجيب فيه، ومزاياً خصه الله بها.

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم، وغيروا ما بأنفسهم، سلّطَ الله عليهم الفلسطينيين فغلبوهم على أمرهم، وأخرجوهم من ديارهم، وحالوا بينهم وبين أبنائهم وأخيراً أخذوا التابون منهم، فانفصمت عُرْوَتهم، وتصدَّعت وحدتهم، ثم استكانوا إلى ذُلّ، وأغمضوا جُفونهم على هَوان.

وظلوا على ذلك حِقْبَةً من الدهر، حتى كان نبِيُّهم صمويلُ، ففزع إليهِ نفر منهم أرادوا أن يتجافَوْا بنفوسهم عن مَطارح الهوان، وينزعوا بها عن معَرّة[1] الامتهان، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكاً يتألّفُونَ تحت رايته، ويُجمعون أمرهم تحت زعامته، لعلهم به يغلبون العدوّ، ويكتب الله لهم النصر.

فقال لهم ـ وقد كان سَبرَ أحوالهم، وعجَمَ عيدانهم، وعرفَ موضع الضعْفِ فيهم ـ: إني أتوقع تخاذُلَكم إذا كُتب عليكم القتال، وتواكلكم حينما يدعوكم داعِي الجهاد.

قالوا: كيف نَتَخاذل ونتواكل، وقد أُخْرِجنا من ديارنا، وحِيلَ بيننا وبين أبنائِنَا؟ وأيّ حالٍ أسوَأ مما نحن فيه؟! وأيّ ذلّ أشدُّ مما ابتُلينا به؟!

قال صمويل: دَعُوني أستخير الله في أمركم، وأستوحِيه في شأنكم.

---

(١) المعرة: الأذى والمساءة والمكروه.

واستخار الله فيمن يصلح لِمُلكِهم، ويقوم على قيادتهم، فأوحى الله إليه: إني قد اخترتُ عليهم طالوتَ ملكاً. قال صمويل: يا ربِّ؛ إن طالوت رجل لم أعرفْهُ بعدُ، ولم أره من قبل؛ فأوحَى إليه: إني مُرْسِله إليك، وسوف لا ترى عسراً في لقائه، ولا جُهْداً في تعرُّف ملامحه، فَـوَلِّهِ المُلْك، وسَلِّمه رايةَ الجهاد.

* * *

وكان طالوتُ رجُلاً بادناً[١] فارعاً[٢]، وافيَ التَّقْطيع[٣]، شديدَ الأسْرِ[٤]، له عينان يلمح الناظر إليه أن وراءهما قلباً ذكياً، وَجَناناً فَتِيًّا، ولكنه لم يكُ رجلاً بعيدَ الصيت، أو معروفَ الذكر، كانَ يقيم مع أبيه في قرية من قرى الوادي، يرعى له الماشية، ويفلحُ الأرض، ويَصْلح الزرع.

وفيما هو في شأنه في الحقل مع أبيه، ضلَّتْ منهما الأتُن[٥]، فخرج مع غلامه ينشدانها في شِعَاب الوادي، وبين أوْدِية الجبال، وظلا أياماً يُـغِذَّان[٦] السَّير بين غَوْر الأرْض ونجْدِها، حتى وَرِمَت منهما الأقدام، وأكلَّهما السُّرَى.

فقال طالوتُ لغلامه: هَيَّا بنا نعود أدْرَاجَنا، فإني أحْزِر أنَّ أبي قد كثرت بلابِله، وتشعبَت هواجسه، وأخشى أن يَشْتغل بنا عن الأتُن.

قال الغلام: إنا الآن قد وصلنا إلى أرض «صوف» موطن صمويل، وهو ـ فيما أعْلَمُ ـ نبيٌّ يأتيه الوحي، وتهبِط عليه الملائكة، هَلُمَّ إليه نستوضحه شأنَ الأُتن لعلنانستضيء برأيه، أو نهتدي بوحيه. فارتاح طالوت لهذا الخاطر، وتجدّد عنده الأمل، وشام بارق النجاح.

ولقيا في طريقهما إلى صمويل فتياتٍ خرجْنَ يستقِين الماء، فطلبنا إليهن أن

---

(١) البادن: الضخم.
(٢) الفارع: الطويل.
(٣) التقطيع من الإنسان: قَدُّه وقامته.
(٤) الأسر: شدة الخَلق، يقال: شد الله أسره: أحكم خلقه.
(٥) الأتن جمع أتان: وهي الحمارة.
(٦) غَـذَّ السير: أسرع فيه.

يرشدنهما إلى صمويل نبيّ الله الكَريم، أين يقيم؟ وكيف يلقيانه؟ فقلنَ لهما: إن الشَّعب ينتظره فوق هذا الجبل، وهو يوشك الآن أن يجيء؛ وبينما هما في الحديث معهن إذ طلع عليهما صمويل يفوح منه أَرَجُ[١] النبُوَّة، وتحدّث معارِفه عن نبيّ كريم ورسول أمين، والتقَتْ عينا طالوت بصمويل، فتعارفت أرواحهما واتصلت نفوسهما، ووقع في قلب صمويل أن هذا طالوت الذي أوْحَى الله إليه بتمليكه، وآذنه[٢] بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان.

قال طالوت: إنني جئتك يا نبيّ الله مستوضحاً مسترشداً، إن لأبي أتُناً ضلَّتْ في شِعَاب هذا الوادي، وقد خرجتُ في إثرها مع هذا الغلام نتعرَّفُ الطريقَ وَنَقْفُوا الأثر، فما ظفرنا بعد ثلاث إلا بالخيبة، وما عدنا إلا بكَوَاذب الآمال، وقد جئناك لعلَّ فيضاً من علمك يهدينا إليها، أو يدلنا عليها!

قال صمويل: أما الأتُن فهي في طريقها إلى أبيك، فلا تربط قلبك بها، ولا تعلِّق حِبال ذهنك فيها، ولكنني أدعوك لأمر أجلَّ خطراً، وأعظم مقداراً إن الله قد اختارك على بني إسرائيل ملكاً، تجمع كلمتهم، وتحزِم أُمورَهم؛ وتخلِّصُهم من أعدائهم، وسيكتب الله لك ـ إن شاء ـ النصر، ولأعدائك الكَبْت والخذلان.

قال له طالوت: ما أنا والمُلْك والرياسة، والزعامة والسلطان!؟ أنا من أبناء بنيامين أخمل الأسباط ذكراً، وأقلهم مالاً، فكَيف أصير إلى الملك، أو أُمسك بحبال السلطان؟!
قال صمويل: إن هذه إرادةُ الله وَوَحْيُه، وأمرُه وكلمَته؛ فاشكر له هذه النعمة، وأجمع رأيك عَلَى الجهاد.

وَأمسكَ طالوتَ من يده، وَوَقف به على القوم يقول: إن الله قد بعث لكم طالوت هذا ملكاً له حقُّ الرياسة والسلطان، وعليكم الطاعة والإذعان؛ فأجمعوا أُموركم، واستَعِدُّوا للقاء عدوكم.

ولكن ما كان أشدَّ ذهولهم، عندما أخبرهم صمويل أن المُلْك فيهم سيصير إلى طالوت، وهو مَنْ رَأوْه خمولَ ذِكْرٍ، وقلةَ مالٍ، وسوءَ حالٍ، ثم نظر بعضهم إلى بعض،

(١) أرج الطيب أرجاً: فاح.
(٢) آذن بالشيء: نادى وأعلم.

ولَـوَوْا أخادِعَهم[١]، وزمُّوا بأنوفهم، وقالوا: كيف يكُونُ له الملْكُ علينا، وهو في النسب غير عريق، وفي المحتد غير كريم؟ لا هُوَ من أبناء «لاوى» فرع النبوة وسَرْحَة[٢] الرسالة، ولا هو من غصن «يهوذا» معدن الملك وأصحاب الرياسة؟ ثم كيف تولّى علينا رجلاً فقيراً، فارغ اليد، لا يجد مالاً يُدبِّرُ به الملك، أو يحفظ به حَوزة السلطان، وما منا إلا صاحبُ ثروَة وجاه، وذو سطوة ونفوذ!

قال صمويل: إن زعامة الجيش ورياسة الملكِ لا يحتاجان إلى نسب أو نَسَب، وما يُجْدِي النسب لفَدْم[٣] أخْرقَ، لا يعرف من تصريف الأمور شيئاً؟! وما غنَاء المال لمتخلف الذهن، سقيم الفهم، لا يملك في سياسة الجيوش حَوْلاً ولا طَوْلاً؟! ولكن هذا طالوت، فضّله الله عليكم، لما فيه من الكفاية والقدرة، وما رزقة من مواهب الزعامة والرياسة، وأنتم ترونه رجلاً بسط الله في جسمه، وَسَوَى في خَلقه، صُلْب العضَل، متين العَصَب، عريضَ الألواح، وذلك أجْلَبُ للمهابة، وأنسبُ للرياسة.

ألاَ ترون لو أن الله مَلّكَ عليكم رجلاً قميئاً[٤]، مُنسرِقُ[٥] القوة، مُنْحَل العزيمة، فإنه لا بدَّ تقتحمَه عيونكم، وتزدَريه جنودكم، ثم إنّ الله رزقهُ استعداداً فطرياً، وميلاً للحروبِ غريزيًّا، وأحْكَم من عقله، وَأرْهَفَ ذِهْنَه، حُولٌ قُلبٌ، رَحْب الذراع، طويلُ الباع، بصير بالحروب، خبير بمواطن الكفاح.

وفوق ما منحه الله من الصفات المحمُودة فإنه قد اختاره لكم وملّكهُ عليكم وهو أعْلم بالمصالح وَأعْرفُ بالعواقب، ثم هو ـ جل شأنه ـ مالكُ الملك، يؤتيه من يشاء، ويَصْرِفه عمن يشاء.

وما كان يليقُ بكم ـ وقد اختار الله لكم ـ أن تكُون لكم الخِيَرَة من أمْرِكم، أو النُّفْرَة من جانبكم.

---

(١) الأخدع: أحد عرقين في جانبي العنق.
(٢) السرحة: الشجرة العظيمة الطويلة.
(٣) الفدم: رجل فدم أي ثقيل الفهم عيي.
(٤) القميء: الذليل والصغير والحقير.
(٥) منسرق القوة: ضعيف القوة.

قالوا: أمَّا إذا قضى الله بشيء، أو صدر عنه أمرٌ أو نهي فلا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا مَعْدِل عن أمره، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمرَهُ، ونعلم قضاءه.

قال: إن الله قد علم لجاجكم وعنادكم، وقيلَكم وقالكم، فجعل لكم علامة وآية، أن تخرجُوا إلى ظاهر المدينة فتروا التَّابوتَ ـ الذي ذَلَلْتم بعد ذهابه ولقيتم الخسْفَ والهوانَ بَعْدَ ضياعِه ـ قادماً إليكم، وفيه سكينة لكم، تحمِلُه الملائكة، وفي ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين.

وخرجُوا كما واعدهم، فوجدوا التابوت، ونزلت عليهم السكينة، وصحَّتْ عِنْدَهم العلامة، فبايَعوا طالوت، وأقَرُّوا له بالملك والسلطان.

* * *

واضطلع طالوتُ بالملك، وأحسن قيادة الجنود، وأظهر حَزْماً وعَزْماً، وفطنَة وذَكاء. قال: يا قوم، لا ينتظِمنَّ في جيشي إلا من كان خالياً من الهواجس، فارغاً من الصوارف، فلا يدخل من كان قد شرع في بنَاءٍ لم يُتمَّهُ، أو خطبَ عروساً لم يَبْنِ بها، أو له تجارة وعقله مشغولٌ بها.

وتمَّ له ما أراد، واستوى أمامَه جيش متلاحم النسج، قوي القلب، قوي الجناحين، ولكنه أراد أن يتحَوَّط لنفسه، بعد ما بدا له منهم الشكُّ في أمره، والجدَل حول تمليكه، فأراد أن يختبرهم مخافة أن يخْذُلوه ساعةَ اشتباك القنا[١] وخَفق البُنُود[٢]، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران، فقال: إنكم ستبلغون نهراً، فمن كان صابراً محتسباً، فلا ينهلُ إلا بمقدار ما يبرد كبده، ويبُلُّ ريقه، هذا الذي أحسبه مني، وتسكُن إليه نفسي، أما من نهلَ وعلَّ[٣] فقد جاوز الأمر وركب مَتن الخلاف.

وكان ما خافه طالوت، فقد شربوا منه إلا قليلاً منهم، هم الصابرون المؤمنون المخلصون، المجاهِدون، وأصبح الجَيش أوزاعاً من ضعفاء العزيمة وخائريها، ومن

(١) القنا: الرماح.
(٢) بنود جمع بند: وهو العلم الكبير.
(٣) عَلّ: شرب ثانية أو تباعاً.

صادقي النية وكاذبيها، ولكنَّه ادَّرَع بالمخلصين، وصابَرَ المترددين، وخرج بالجمع يلقى العدو، ويجاهد في الله.

ولما خرجوا إلى الساحة واستشرفوا للقتال، لمحوا من أعدائهم رجالاً أشداءَ ما فيهم إلا ابنُ كريهة[١] وخَوَّاض غمرات[٢]، يفضلونهم أُهْبَة، ويفوقونهم عُدَّة وجالوت بُهْمَتُهم[٣]، وكبشُ كتيبتهم[٤] يصول بينهم ويجول.

وانقسم أصحاب طالوت شُعْبَتَين: شعبة منهم خار عُودهم، وانخلع فؤادهم، وتخاذلت قوتهم، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[٥] وشعبة منهم ظلت صابرة صامدة، هم الذينَ عَمَرَ قلبهم الإيمان، وأُشربوا في قلوبهم حبَّ الله واستعدُّوا للموت، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم، ولم تردعْهُم قلة عددهم، بل قالوا لطالوت: امض لشأنك، وسِرْ في سبيلك، وإنا إن شاء الله لا نُخْذَل من قِلَّةٍ، ولا نغلب على أمرنا من ضعف، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[٦].

وخرجوا وَعَتادُهم الصبر، وزادُهم الإيمان، وتَوَجَّهوا إلى الله، طالبين منه أن يُفْرغ عليهم صبراً، ويُسْبغ عليهم نصراً، فإنهم ما خرجوا إلا جهاداً في سبيله وابتغاءً لمرضاته.

ولما التقى الجمعان، وَحَمِيَ الوَطيس[٧] برز جالوتُ يدعو للمناجزة والمبارزة، فخاف الباقون بطشه، وهابوا صَوْلته، ووَقفوا حوله بين متقاعِسٍ ومُحْجِم، أو منخذل ومتراجع.

* * *

(١) الكريهة: الحرب أو الشدة في الحرب.
(٢) غمرات جمع غمرة: وهي الشدة.
(٣) البُهمة: الشجاع الذي يُستبهم على قرنه ويخفي عنه وجه غلبته.
(٤) الكتيبة: الجيش.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٧) حمي الوطيس: جدت الحرب واشتدت.

كان يقيم في بيت لحم[١] رجل تقدَّمَت به السنون، وأحنت صَعدَته[٢] الأيام، يعيش سعيداً في نفسه، آمناً في سِرْبه، وَادِعاً مع بنيه.

ولما وَقعت الحرب، واستَنْفَرَ طالوتُ بني إسرائيل للجهاد، انتخب ذلك الرجل من كبار أبنائه. وقال: خذوا عُدَّتكم وسلاحكم، وظاهِروا إخوانكم، وَأدُّوا في الجهاد نصيبكم.. ثم قال لأصغر أبنائه: أما أنتَ فنصيبك في الجهادِ أن تحمل الطعامَ لإخوتك، وأن تكون سفيراً بيني وَبينهم، وَتُسْفِر لي كل يوم عن أحوالهم، أمَّا ساحة الحرب فحذَار أن تَقْرَبها، أو تخوض غمارها، أو تصلى بنارها، فإنك لست من رجالها ولا فتيانها، ودعْهَا لمن زَبَنَها[٣] وَزَبَنته، وعرفها وعرفته.

كان ذلك الغلام داود عليه السلام، وكان مع حداثة سنة، ولدونةَ عودِهِ وَضيء الطلعة، أبلغ الغُرّة، متسعِّر الذكاء، متوقد ما بين الجوانح.

سار مع إخوته، وما وصل إلى ساحة القتال حتى وجد رجلاً راعه أنه عملاق طاغية يتحدَّى، ولكنّ الأقران تتحاماه، والشجعان تخشاهُ، فسأل عن هذا الذي يقف متحدِّياً متغطرساً؟! وما بال هؤلاء القوم يَنكصون ويتراجعون؟ فقيل له: هذا جالوت رئيس الأعداءِ وزعيمُهم، وما برزَ إليه شخصٌ إلا ردّهُ جريحاً، أو أرْداه قتيلاً، والقلوب قد هَلِعت لهيبته، واضطربت من بأسه وشدته، وقد جعل طالوت جزاءً لمن يقتُله ويقي المؤمنين كيده وشره، أن يزوجه إحدى بناته، ويولِّيه الملك من بعده، فثارت الحفيظة في نفس داود، وهاجت الحمية في قلبه، وَكبُر عليه أن يرى عملاقاً كافراً يتحدَّى ويصول ويجول ويذهب ويجيءُ، ولا يلقى إلا رِعْديداً[٤]، مخلوع الفؤاد.

فخفَّ إلى طالوت، وطلب إليه أن يأذن له في منازلة جالوت، لعل مصرعه يكون بيديه، فاستصغر طالوت شأنه، وخشيَ أن يخرج هذا الحدث للقائه، فتناله ضربة تَطِيح بها رأسه، وتذهَبُ فيها نفسه، وهو لا يزال فتىً أغَرّ في مَيْعَةِ الحداثة، وَرَبيع الأيام، وطلب

(١) بيت لحم: بلد قرب بيت المقدس كان مهد عيسى عليه السلام.
(٢) الصعدة: القنا التي تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف والمراد بـ أحنت صعدته: أحنت قامته.
(٣) زبن: دفع، زبنته الحرب: صدمته.
(٤) الرعديد: الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جبناً.

إليه أن يتركَ الأمر لمن عساهُ أن يكونَ أكْبَرَ سناً، وأقوى جسماً، وَأمْضى عزماً، وأجْمَع قلباً.

قال داود: لا يخْدَعَنَّك ما تراهُ من صغر سني، وَقَمَاءَةِ[١] جسمي، عن حرارة الإيمان التي تجيش في صدري، ونار الحنَق التي تلتهب في قلبي، ولقد هجم بالأمس القريب أسَدٌ على غنم لأبي فَعَدَوت وَرَاءه حتى أصَبْتُه فقتلته، وصادفني مرة دُبٌّ فاتلك فنازلته ثم أرْدَيْتُـه، والعبرة بقوة النفس لا بكبر السن، وبمضاء العَزْم لا بضخامة الجسم.

ورأى طالوت الصدقَ في لهجته، والحزم والعزم في نيته، فقال له: دُونَكَ وما تريد، والله كالئُك وحافظك، وهاديك ومبصّرك، ثم ألْبَسَه ثيابه، وقلده سيفه، وتَوَّجَهُ خُوذَة فوق رأسه، ولكن داود لم يكُن قد لبس الدرع، ولا عالج السيف، فَنَاءَ[٢] بما حَمَل، وثقل عليه ما اشتمل، فخلع كلّ ذلك، واحتمل عصاه، واحتقب[٣] مِقْلاعه، واصطحب أحجاراً مُلساً، وتهيأ للخروج.

قال طالوت: كيف القتال بالحبل والمقلاع، وهذا مقام السيف والنشاب؟ قال داود: إن الله الذي حماني من أنياب الدُّب ومخالب السبع سيمنعُ عني ـ بلا شك ـ ما يريد لي هذا الطاغية من كيد أو نكال.

وخرج وهو من مضاءِ عزمه في أمْنَع حِرْزٍ، ومن صدق إيمانه في أقوى حصنٍ، والقلوب نحوه تهفو، والعيون إليه ترنو.

وَرَأى جالوت قِرْنه[٤] غلاماً حديث السن، صغير الجسم، لا يحمل سيفاً ولا يتنكّبُ قوساً، فهزىء به، واحتقر شأنه، وقال: ما هذه العصا التي تحملها أكلباً تُطارده، أم غلاماً مثلك تناجزه؟! أين سيفك وترسك؟ وأين سلاحك وعُدَّتك؟ يخيَّل إليّ أنك كرهتَ حياتك، وسئمت عيشك، مع أنك لا تزال حديثَ السنِّ، ولم تحتملُ بعدُ تكاليفَ

(١) قماءة جسمي: ضآلته وصغر حجمه.
(٢) ناء بحمله: نهض به مثقلاً.
(٣) احتقب الشيء: شدَّ الحبل الذي تشد به الحقيبة والمعنى هنا: جعله كالحقيبة.
(٤) القِرن للإنسان: مثله في الشجاعة والشدة.

العيش، ولا نَصَب الحياة! تعـال؛ أدنُ مني؛ فإنُه بعد لحظةٍ ستسيل نفسك، وتُطْوى صحيفة عمرك، وأُقدمك لحماً طرياً لوحوش البرية، وطيور السماء.

قال داود: لك دِرْعُك وترسك، وَسَيفك وَنَشَّابك، أما أنا فإني أتيتك باسم الله، إلٰه بني إسرائيل الذين أذْللتهم وَأخْضعتهم، وسترى عما قريب، أهو السيف الذي يصرع وَيَقتل، أمْ هي إرادة الله وقوته؟

وَمَـدَّ يده إلى كتفه، وَأخْرج الحجر، وَوَضَعه في المقلاع، وَسَدَّده نحو جالوت فإذا هو مشجوج الرأس، سائل الدَّم، مثْخن الجراح، ثم قَفَّاهُ بحجر وحجر، حتى خَرَّ صريعاً لليدين وللفم.

وارتفعت راية النصر، وَانكسرت بعد جالوت شوكة العدو وَوَلوْا منهزمين يتبعهم المؤمنون ضَرْباً وطعناً وتقتيلاً، وثأروا لأنفسهم، واستردوا عزهم الذاهب ومجدهم التليد.

* * *

بين داود وطالوت

انعقد لداودَ النصر، وتم له الظَّفَر، فأُتلفَتْ على محبته القلوب وتأكَّدت له أوَاصِرُ الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديثَ القوم، وموضع الإشارة ومِحْور الحديث.

أمَّا طالوت فقد وفَّى بشرطه، وبرَّ بوعده، وصدق في يمينه، فزوَّجه ابنته، وَأَحَلَّهُ بين نفسه وقلبه، وأضحى موضع نصحه وَعَيْبَةَ[1] سرِّه، وجمعت بينهما أوَاصِر نسب، وَأَلَّفت بينهما غايةٌ من جهاد، فتهيأ لداود بذلك فتح مبين وفوز كبير، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

ولكن القلوبَ مهما تكُن صافيةً لا يُؤْمَن على الدَّهْر كَدَرُها، والنفوس وإن كانت مَنْخولةً نقيّة قلّ أن يبقى على الأيام نقاؤها، فقد أصبح داود يوماً فإذا طالوتُ عابسُ الوجه، لاوي العِذَار[2]، مقطّبُ ما بين العينين، ابتسامُه تكلف وقولُه تحفُّظ، وحديثه ينمُّ

(١) العيبة من الرجل: موضع سره.
(٢) العذار: جانب اللحية.

عن حقدٍ وافد، وضغْن جديد! فماذا غيَّرَ من قلبه، ورنَّقَ[١] من صفو مودته؟ وما عسى الواشي أن يكون قد بلغ عنده، ألم يكن داود ـ ولا يزال ـ سيفاً سلهُ الله حديداً قاطعاً، مجاهداً يكلّ، غازياً لا يملّ، مظفَّراً في الحرب، ميمون النقيبة في ساح القتال؟ ألم يجعل من نفسه وعافيته دِرْعاً لطالوتَ يدفع عنه البلاء، ويصدَّ عنه كيد الأعداء؟ أليس هو صهره وراعي ابنته؛ ومن يوم أن بنى بها لا يزال بينهما مَحْض الود، وخالص الوفاء؟ فما عسى أن يكُون قد غيَّر قلبك يا طالوت؟!

قال داود: لعله خاطرٌ متردد، ووَهم عارض، ومِزَاج مُعتكر، لا يلبث أن يصفوَ ويلين.

وضمه مع زوجه «مكْيال» ليلٌ ساج، وشملهما سكُونٌ شامل، فقال لها وهو يهمس بصوته، ويتحفظ في حديثه: يا مكْيال، لا أدري أمخطىءٌ أنا فيما رأيتُ أمْ مُصِيب؟ وصادق فيما حَزَرت أم غير صادق؟ لقد رأيتُ أباكِ عابسَ الوجه، ضائق الصدر، تحدِّث نظراته عن غيظ كامن، وتَشِي معارفه عن شيء جديد، فهل عندك شيءٌ مما رأيت؟

قالت مكيال، وقد أرْسَلَتْهَا آهَةً حبيسة، وذَرَفتها دمعة سخينة: لستُ أكتمك يا داود شيئاً أعلمه، وأصونُ عنك أمراً تجهله؛ إن أبي منذ رأى القومَ من بني إسرائيل يُكِنُّون لك في نفوسهم محبة وإجلالاً، ويُغضُون عيونهم في حضرَتك مهابة وإعظاماً، ومُذْ رأى كلمتَك بينهم تعلو، وخطَرَكَ فيهم يسمو، ومذ رآك تنتقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئك النصر يتبعه النصر، خشي على مُلكه من نفوذك، وخاف على نفسه من سلطانك، والمُـلْكُ ـ كما تعلم يا داود ـ مَرْعًى خصيب، وحِمًى عظيم، يدافع عنه صاحبه بنفسه وسلاحه، وقلبه وجَنَانه، وصاحبه أبداً يشكُّ في بطانته، ويشفق عليه حتى من صفوته وخلصائه، فهو لذلك يأخذ بالظن، ويتهم بالحدسِ، ويعاقب لمجرد الإشفاق.

وأبي ـ وإن كان مؤمناً خالص الإيمان عالماً وافر العلم ـ مَلِك تلتابهُ سوْرَة الملوك، وسلطان تختلج في صدره هواجس السلاطين. وقد علمتُ أخيراً ـ وإن لم أكُن أجزمُ بصحة ما علمت ـ أنه يفكر في التخلص منك والقضاء على سلطانك، والقصّ من

(١) رَنَّق الماء: عكره.

جناحك. . . والرأي عندي أن تأخذَ بالحزم نفسك، وتتحوّط لحياتك، فإن كان ما توقعُته حقًّا ظفرت بالسلامة، وإن كان بعيداً لم يضرك الحزم شيئاً.

قال داود ـ وقد أشجاه ما سمع ـ: ما أنا إلا جنديٌّ مقاتل تحت رايةِ السلطان، ومؤمن أُدافع عن بَيْضَة الأيمان، ولعل ما دخلَ على طالوت كان من وسْوَسة الشيطان، أو تَسْويل النفس الأمَّارة بالسوء، وربما أخزى شيطانه وقهرَ هَوَاه، ثم أغمض أجفانه على نوم هادىء، كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً.

* * *

واستيقظ داود يوماً على دعوة طالوت، ومَثُل أمَامَهُ، فقال له: يا داود إنَّ بي اليوم هَمًّا ناصباً، وأمراً حازماً، قد بلغني اليوم عن كنعان أنهم عادوا فجمعوا جموعهم، وألّفوا أحزابهم، فاستحصد[1] أمرهم، وأصبح متوقعاً شرْهم، وليس لي عون إلا بك، وليس لهذا الأمر سواك، فخذ سيفك، واختر مَنْ ترى من جندك، واذهب إليهم، وإياك أن تعود إلا منصوراً، يَرْعف[2] سيفك بدماء أعدائك، أو مقتولاً محمولاً على أعناق رجالك.

وحَسِب طالوت أنه كُفِيَ أمر داود، ولكن داود على الرغم مما عَرَف من أمر صاحبه، واختلاط إرادة الشر بإرادة الخير في دعوتـه، أطاع طالوت وذهب إلى الكنعانيين، مقاتلاً بسيفه، مُرخصاً حياته، لا يُبَالي أوقعَ على الموتِ أو وقع الموتُ عليه، ولا يعبأ أيخرجُ من الحرب سليماً مُعَافى، أم تفلتُ الحياة من بين جنبيه، وكتب الله له النصر، وعاد إلى طالوت مظفراً منصوراً.

فما زاد ذلك طالوتُ إلا ضغناً، وما أكسبهُ عنده إلا حَنَقاً وكرهاً، فأضمر له القتل، وبيّتَ النكال، وعلمت زوج داود بما أضمرَ أبوها، وما يُرَادُ بزوجها، فذهبت إليه لهيفة حزينة، وحدثتُه بلفظ خاطف، وقلب واجف: أن انْجُ بنفسك، واهْرَب بحياتك، وإلا أكسْبتَني حسرة بموتك، وضاعفتَ هَمِّي بمصرعك. . .

فما وجدَ داود بُدًّا من الهروب، وركوبُ مَتن الاغتراب، واتخذ الليل جملاً، وهربَ طريدَ الحسد، طريد الحِقْدِ، عامرَ القلب بالإيمان، عظيم الثقة بالله. . . وانتهى إلى

(١) استحصد: اشتد واستحكم.
(٢) رعف: سال.

مَـفَازَة[١] أوى إليها، وألْقى بهُمُومِه فيها، وفزع إليه أخوتُه وعلم بمكانِه مُرِيدوهُ من بني إسرائيل، فَهُرِعُوا إليه جماعات، وانثالوا عليه زَرَافات.

أمَّا طالوت فقد ضُعف أمرُه في قومه، وكثر الخارجونَ عليه والهاربون من جنده، وخـاف العاقبة، فأعمل السيف، وعاقب بالظن، وأخذ البريء بذنب المسيء، والمؤمن بذنب العاصي، ثم آذى العلماء، واضطهد القُرَّاء، وأبقى الرعب في قلوب الجنود، واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة، عليه سياج من العظمة والجبروت.

كـان داود لا يزال حيًّا ينافسه في ملكه، ويتحدَّاهُ في قومه، ولا يأمنه على نفسه، وقد كشف له صحيفة ضِغْنه، وَرَاش له سهام مكْره، فلا بد أنه مُضْطغن عليه، مُرِيدٌ الشرَّ له، إذن فلينهض إلى حربه، وليتهيأ لقتاله، مهما يقف في سبيله من عقبات.

وخرج داود من مفازته، يتحسس أمر طالوت، فإذا هو قد انتهى إلى واد ومعه ثُلّة[٢] من شيعته وجنده، وقد رقدوا لما أصابهم من جهد وما أدْرَكهم من أيْنِ المسير، فمشى داود وئيداً حتى اسْتَلَّ رمح طالوت من بين جنبيه وعاد ونهض طالوتُ يتفقد رُمْحُه، ويبحثُ عمَّن أخذهُ، وبينا هو حائر مضطربٌ وافاهُ رسولُ داود يقول: هذا رُمْحُك؛ وقد مكَّن الله لداود من رأسك، ولكنُه كان أعَزّ نفساً وأكرمَ قلباً، وَأدْنى إلى الله إيماناً.

ونالت كلماتُ رسولِ داود من نفسه، ولمست مكان الإحساس من قلبه، فأخذتهُ عَبرة من الأسى، ونالتهُ حُرقةٌ من الندم، ورجع باكياً مستعيراً، نادماً على أنهُ قد غدر بداود، وما كان أهْلاً للغدر، وقتل العلماء والقرّاء، وما استحقوا القتل؛ فما يفعل غداً بين يدي جبار السموات؟!

فرجعَ أدْرَاجه، ثم هَامَ على وجهه، ومضى في الفَلَوات[٣] يُعْلن الندامة، وينشد من الله التوبة، حتى وَافاهُ الحمام.

أمَّا بنو إسرائيل فقد هُرِعُوا جميعاً إلى داود مبايعين، وشدّ الله ملكه، وآتاهُ الحكمة وفَصْل الخطاب.

---

(١) المفازة: الصحراء.

(٢) الثلّة: الجماعة من الناس.

(٣) فلوات جمع فلاة: الأرض الواسعة المقفرة.